نشأة الكنيسة وصلتها بالقربان

حسب الفرض الماروني

بقلم الخوري فرنسيس اليسري

« انا الخبز الحي الذي نزل من السماء . ان اكل احد من هذا الخبز يحيا الى الأبد . والخبز الذي سأعطيه انا هو جسدي لحياة العالم . الحق الحق اقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في انفسكم . من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية وانا اقيمه في اليوم الأخير لأن جسدي هو مأكل حقيقي ، ودمي هو مشرب حقيقي . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه . »[1]

اننا نستخلص من تعليم القديس يوحنا ، من اقواله هذه في القربان ومن غيرها ، النقاط التالية : في البدء كان الكلمة والكلمة كان الله وبه كانت الحياة . ثم صار الكلمة جسداً وحلّ فينا واعطى جسده لحياة العالم . ولمّا عاد الابن المتجسد الى الآب بقيت هذه الحياة تعطى لكل مؤمن غذاءً هو جسده وشراباً هو دمه . وهكذا هما الخبز والخمر : جسد المسيح ودمه ، اللذان يشركاننا في الحياة الالهية .

صلة القربان بالكنيسة عند الآباء

وانطلاقاً من هذه الكلمات والمعاني راح اللاهوتيّون وآباء الكنيسة يعلمون صلة القربان بالكنيسة ويلحون على هذه النقطة : « دور القربان في تنمية الكنيسة واستمرارها في الوجود » . بنوع انه لا يخلو عصر من عصور الكنيسة الاّ وأتى فيه اللاهوتيون والآباء على فاعلية القربان هذه . طبعاً لم تطرق هذه النقطة كموضوع موحد تعطى فيه جميع مفاعيل القربان دفعة واحدة . انما اتت افكار موزعة تدل على وجهات نظر وتكوّن في مجموعها ، نوعاً ما : صورة عن الحياة في الكنيسة وان لم تكن واضحة المعالم . فعلّمنا احد الآباء ان القربان غذاء روحي وحياة ابدية . وقال آخر : انه مبدأ وحدة يشد المؤمن الى المسيح ، ويشد المؤمنين بعضهم للبعض الآخر . وبين آخر كيف يدفع القربان بالشهداء

---

1) يو ٦/٥١-٥٩ .

يتقدمون ذواتهم ذبائح مرضية للحمل الذبيح ويدل غيره كيف ان هذا السر وضع محو الخطايا وال ما هنالك من وجهات نظر. وعلى سبيل المثال سنعطي بعض الشواهد التي تدعم قولنا هذا.

« فتعليم الرسل الاثني عشر » يقول ان القربان هو رمز وحدة المسيحيين. فالكنيسة تطلب من ربها قائلة: « كما ان الخبز كان منتثراً في الجبال وصار واحداً عندما التأمت اجزاؤه كذلك فلتكن كنيستك مجموعة من اقاصي الأرض للدخول في ملكوتك »[1] والصلاة هذه هي صلاة شكر قربانية. ويرى في القربان ايضاً مبدأ غذاء روحي. وحياة ابدية. وعربون نعيم خالد. لهذا عندما يتكر المسيحي يقول: « نشكرك ابانا لأنك اعطيتنا غذاء وشراباً روحياً وحياة ابدية بواسطة ابنك »[2]

وعلّم القديس ايريناوس: الذي عاش في القرن الثاني ان القربان بعذي جسدنا الذي باقتباله نقتبل عطية الله اعني الحياة الأبدية[3]. وبعد ان يشرح كيف ان الكرمة المغروسة في الأرض تعطي الثمرة في حينها. وكيف ان حبة الحنطة الواقعة في الأرض لا تتلاشى بل بقوة الله ترتفع في الربيع نبتة جميلة وتكتمل في الصيف سنبلة مكتنزة حباً يكمل قائلاً: « هكذا اجسادنا المتغذية بالقربان اذا دفنت في الأرض تبعث حية »[4]. فالقربان اذاً هو عربون حياة خالدة.

وهو ايضاً غذاء كاف لنمو الكنيسة وتطورها. فالكنيسة الام العذراء ليس لها حليب تغذي به اولادها. فالحليب الذي تعطي هو يسوع ابنها البكر، « الثدي الذي ترضع منه العوالم الحياة والنور »[5].

وسر الافخارستيا هو من المواضيع المحببة الى آباء القرن الرابع فلقد قال فيه « اميروسيوس »: « انه عربون غفران الخطايا وحماية ابدية لأنه غذاء فائق الطبيعة »[6].

ولقد اجاد القديس يوحنا فم الذهب في كلامه على القربان حتى دعي عن حق «ملفان القربان». فهو يبرهن فيما يبرهن ان غاية المناولة هي الاتحاد

١) تعليم الرسل الاثني عشر ١٠:٩.
٢) تعليم الرسل الاثني عشر ١٠:٩
٣) Contra Hæreses : 5,2,2.
٤) Contra Hæreses : 5,2,2.
٥) القرض الماروني : الأحد الليل : القومة الأولى الباعوث.
٦) في المزامير : ١١٨ العظة الثامنة، ص ٤٨

بالمسيح ؛ والحصول على خميرة لحياة الأبدية . زد على هذا نعماً عديدة حالية تعطينا القوة والطهارة والحرية . ان فم الذهب ينادي المؤمن قائلاً له : « عندما تتقدم لتأخذ جسد الرب قل في نفسك : بفضل هذا الجسد لست بعد رماداً وتراباً . وبفعله حصلت على الحرية البنوية . وقل ايضاً : ان ينابيع خلاصية جرت للارض كلها من هذا الجسد المكلوم والمطعون بالحربة . فهذا هو الحب اللامتناهي »[1] .

ولم ينتقص القديس اغوسطينوس شيئاً عن سائر الآباء فهو يتكلم كثيراً على القربان واعطى خاصة الشيء الكثير في ثمار المناولة . ومما قال : « ان القربان يدعى حياة وهذا صحيح لأن جسد المسيح هو حياة المديـــة للذين يتناولونه »[2] . ولكن اذا كانت الحياة الأبدية واتحـــاد الدائم الثمرة الوحيدة والأخيرة للقربان فما هي ثمرته المباشرة ؟ فيجيب ان المؤمن يتحد بالمناولة مع المسيح اذ يسكن فيه . ويسكن هو في المسيح : الشيء الذي يفيده قوة ونشاطاً في محاربة الأعداء الذين يناصبونه العداء . وهكذا يكوّن المؤمن والمسيح وحدة ليس فقط بين كليهما ولكن بين الاعضاء جميعاً »[3] .

ولقد برهن كنّارة الروح القدس القديس افرام عن قوة القربان في طرد الشيطان واعطاء الحياة اذ خاطب يسوع قائلاً : « ان خبزك يقتل الشيطان الذي جعلنا خبزه ؛ وكأسك تبيد الموت الذي تغلب علينا . فقد اكلناك وشربناك لا لنبتلعك بل لنحيا بك »[4] .

صلة القربان بالكنيسة عند اللاهوتيين

ولا يقل اللاهوتيون في الكنيسة عن الآباء في فهم هذه الحقيقة والكتابة عنها . فهؤلاء بالاستناد الى الاناجيل وخاصة انجيل القديس يوحنا ؛ وفي شرحهم لكتابات الآباء يعلنون عن هذه النقطة ويشرحونها ويزيدونها وضوحاً . والأمر سواء عند اللاهوتيين القدامى أو المعاصرين . ولا عجب فتعليم الكنيسة واحد لأن الروح الذي يعلم هو واحد .

فالقديس توما الاكويني يبرهن على ان القربان يكمل ما بدأ به سر العماد

١) من تعليقه على الكورنثيين الأول ١٠ /٢-٥ .
٢) العظة الحادية والثلاثون بعد المئة .
٣) القديس اغوسطينوس . العظة ٧١ /١٧ .
٤) افرام السرياني : المأثرة من قصائده في الايمان . الرسائل المسيحية العدد العاشر ت٢ ك١ سنة ١٨٨١ .

ويتمم الكنيسة التي ولدت على الصليب من جنب المسيح[1] . ومن احدث الأقوال واقواها كلمة بيوس الثاني عشر في رسالته : « جسد المسيح السري» اذ يقول : « الكنيسة هي حقيقةً نتيجة جسد المسيح »[2] . فهذه الكلمات من تعليم الآباء جواب للكثيرين ممّن يرون في الكنيسة جماعة مثل باقي الجماعات وجواب للذين يتساءلون عن العوامل التي ساهمت ولا تزال في تطور هذه الجماعة ونموها .

وربّ معترض يقول : هذه هي الجماعة الاسلامية قد عاشت طويلاً . والمقومات الدينية التي لكل ديانة تدل على انها سوف تعمر طويلاً ايضاً مع العلم ان القربان ليس في عداد هذه المقومات فما الذي يميّز المسيحية عن غيرها؟

الجواب هو ان جماعات كثيرة . والاسلامية منها . لها ما يجعلها تستمر في الوجود . فمنها التي تدين بالله خالقاً مديّاناً . والتي تقدّم الشهداء في سبيل العقيدة كالحلاج المسلم المتصوّف . ولكن المسيحية تختلف عن غيرها بأنها ليست ايماناً بتعليم فحسب بل هي شخص المسيح بكمل رسالته في البشرية .

والدين المسيحي يمتاز عن غيره بأن المسيح موجود في الكنيسة وفي قلب كل واحد من ابنائها . فالمسيحية تكوّن الشهداء والقديسين . ولقد تابعت سيرها عبر الأجيال ولها من دماء ابنائها قوة مستمدة من حياة المسيح الدافقة فيها .

وغذاؤها من القربان ومن باقي الاسرار يجعل منها العجوز الفتية . بواسطة القربان يحيا يسوع في كنيسته ويرافقها منذ البدء حتى النهاية . وبالقربان تقوى على الاعداء : وتقدم نفسها ذبيحة في سبيل من تحب . هو جسد المسيح يقربها فتشهد للقيم الروحية حتى سفك الدم اقتداء به وحباً له وللقريب .

وهذا ما خبرته الكنيسة حيث وجدت تحت كل سماء وفوق كل أرض « فشهدت للمسيح في اورشليم وجميع اليهودية وفي السامرة والى اقصى الارض»[3].

الموضوع في الفرض الماروني

والامة المارونية الصغيرة نالت هي نصيبها ايضاً من هذه الشهادة . هذه الامة التي عاشت في هذه الجبال منقطعة معظم ايامها عن الكنيسة وعن المسيحية

---

1) الخلاصة اللاهوتية : (الثالثة ص ، ٢٠٦٤ ، ٣) III, q. 46, a. 2 ad 3 .

2) « جسد المسيح السري » الطبعة الثانية ص ١٠٣ .

3) اعمال : ١/٨ .

لم يكن رفيقها الأ القربان يعذيها في سيرها وفي تمرّدها معها ولا يزال يعمل على ديمومتها . وكذلك الجماعات المسيحية عبرت عن روعة حياتها هذه في الكتب وبخاصة الطقسية منها . فمن تصفح كتاب الفرض الماروني علم ان القربان هو من المواضيع التي يأتي الكاهن على ذكرها كثيراً في صلاته . ومن رجع وحلل هذه الصلوات وجد انها تحتوي على العقيدة بنسبها التي علمها آباء الكنيسة ولاهوتيوها الا وهي صلة الكنيسة بالقربان ان في نشأتها أو في ديمومتها .

وغايتنا في درسنا هذا تحليل ما قد نجد في الفرض الماروني من صلوات تأتي على ذكر الكنيسة والقربان محاولين ايجاد صلة منطقية بين هذه الصلوات اذ ليس في الفرض الماروني موضوع لاهوتي تتبع فيه قواعد مدرسية موضوعية منطقية . ولقد قلنا عرض الكاهن لسيره عن « التحيم » معروف بفرض الرهبان وحتى يعلم القارئ بأننا سوف لا نتطرق في هذا السبيل الى ما يوجد في كتب « المتعبّد » والفروض الخاصة بالقربان .

فالفرض الماروني ليس سوى مجموعة من الصلوات يناجي بها الكاهن ربه بل قل هي مجموعة صلوات شعب اذ الفرض في اساسه جماعي لا فردي . كان الشعب كله يشترك فيه ومتى كان الله يطلب من الشعب ان يكون منطقياً في صلواته ؟ أمّا يطلب عصارة قلب اذ يقول : « يا بني اعطني قلبك » . والشحيمة التي بين يدينا هي نبضات قلب احبّ حتى الامتلاء فغاض صلوات.

من هذه الصلوات سنحاول ان نكوّن موضوعنا . فنعطي في بادئ الأمر باختصار كيف تعمل الكنيسة القربان وبالتالي تعمل ذاتها وهذا هو موضوعنا اي كيف ان القربان يعمل الكنيسة ؛ فنقول كيف تبدأ الكنيسة حسب الشحيمة ثم دور القربان في بنائها وبقائها . وبكلمة واحدة سنبرهن كيف ان الانسان يقدم ذبيحة لله فيقبلها اذ قبل ان الله يقبل الذبائح . وكيف يعيد الله هذه الذبيحة بركات ونعماً تساعد على اكمال عمل المسيح على الأرض . فتقوى الكنيسة بنوع خاص حتى تؤدي الرسالة كاملة فتسير نحو غايتها حاملة بين يديها الكون بكل ما فيه مقدمة اياه للخالق قائلة : اعطيتني يا رب رسالة لأربح العالم وهاكه كما ربحته بالمتاجرة وعندما يدخلها ربها الى جنانه ويمنحها هناك برؤيته وجهاً لوجه جزاء لعملها وذلك في سماء جديدة وأرض جديدة طالما انتظرتها .

الانسان والدين : الذبيحة

الانسان في طبيعته متدين . والدين عبادة بها نبرهن لله عن خضوعنا لأوامره وعن تسليم انفسنا المطلق لمشيئته القدوسة. وخلاصة العبادة هي الذبيحة التي ليست وقفاً على المسيحية بل هي موجودة عند جميع الاديان . ولقد قدم الانسان الذبيحة للاله الذي يعبد في كل عصر من عصور التاريخ .

ثما ان علم بوجود ربه : وفطن انه مبدأ وجوده وغايته حتى اتجه نحوه مقدماً الاكرام اللائق والعبادة الفائقة . مكرساً شخصه وكل ما يملك لخدمته تعالى . ولكنه ما اكتفى يوماً ولا في حقبة من حقبات الزمن بهذا الاستعداد النفسي والاكرام الداخلي. لقد رأى من جهة ان جسده هو عنصر مقوم لشخصيته فمن الواجب اذاً اشراكه بعبادة الله ورأى من جهة ثانية ان عبادته الداخلية تظل ناقصة اذا لم تتجسد في طقوس وحركات خارجية تعبر خير تعبير عما يختلج به في الداخل . وهنا كانت الحاجة ليكرس عطيته وتضحيته الداخلية الذاتية بعطية وتقدمة خارجية تكون رمزاً للاولى وصورة . وكثيراً ما اختار الانسان لتأدية هذه المهمة المادة وخاصة تلك التي تعمل على بقائه عيشاً ؛ وفي ديمومته حياً فاستعمل المآكل من خبز ولحم ، والمشروبات من خمر وحليب وزيت وغير ذلك . وكأني به اختار هذه لأنها تكون معه وحدة وجودية لما هناك من اتصال وثيق بينها وبينه . ولقد كان الله يرضى بهذه الذبائح ويقبلها .

وبالفعل فان الله قبل القرابين لقد « قبل قرابين الآبـاء ابراهيم واسحق ويعقوب » واغدق عليهم نعمه وكمّل معهم وعده . « رضي عن ذبيحة ايليا واستجاب صلاته وساعده على قتل كهنة باعال »[1] ؛ ولذت له قرابين الكثيرين من مقدمي العهد العتيق وفي كل مرة كان يعيدها على مقدميها مثقلة بالبركات طافحة بالنعم « لأن الذبيحة لله روح منسحق والقلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله »[2].

لكن ما كانت هذه الذبائح تنفي للعدل الالهي حقه فتخلص البشرية كلها من سلطان الخطيئة وتنجيها من اسر الشيطان وترد للإنسان حق البنوة ؛ فعلاً . فدماء الابرياء ، ولحوم الكبوش والعجول ، وعصارة الكرمة ما كانت الاّ صوراً ورموزاً واشكالا لا تفي بالمطلوب ولا تعطي ما يرتجى منها ليس هذا

---

١) الملوك الأول ١٨ /٣٦-٤٠ .

٢) المزمور الخمسين ٥٠ /١٩ .

فقط بل ان هناك ذبائح وطقوساً وثنية هي اقرب ما تكون الى المسيحية . ولقد بلغت فيها دركات الانحطاط حداً بمعنى انها بدل ان ترتفع بطقوسها ومعانيها الى اسمى درجات الروحانية انزلت الاله عن عرشه وجعلت منه شخصاً عادياً ناسبة اليه صفات هو منزه عنها .

ذبيحة المسيح

ولكن ما طال الوقت حتى تغيرت معاني العبادة ومعها معاني الذبيحة . لقد راح الانسان يعبد الله بالروح والحق وامتلأت الذبيحة قداسة الهية . ورهبة سماوية . وهذا كان عندما انحدر الابن الكلمة الى العالم ليموت مقدماً ذاته ذبيحة جازت الغلبة على الخطيئة وردت لنا الملكوت الذي فقدنا وعندها « بطلت جميع الذبائح لأن به كانت لنا العجائب الجيدة والمعجزات الباهرة »[1] .

يقول لنا القديس بولس في رسالته الى اهل فيليبي : «ان المسيح الذي هو في صورة الله لم يكن يعتدّ مساواته لله اختلاساً . لكنه اخلى ذاته آخذاً صورة عبد صائراً في شبه البشر وموجوداً كبشر في الهيئة فوضع نفسه وصار يطيع حتى الموت ، موت الصليب فلذلك رفعه الله »[2] . نعم رفعه لأنه « بذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية »[3] . وكان عربوناً لهذا الرضى ان اعاد الله الينا هذه الذبيحة الالهية بركات ونعماً لأنه ان كان دم تيوس وثيران ورماد عجلة يرش على المنجسين فيقدسهم لتطهير الجسد فكم بالأحرى دم المسيح الذي بالروح الأزلي قرّب نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائرنا من الأعمال الميتة لنخدم الله الحي وتغدى معاصينا فتنال موعد الميراث الابدي »[4] .

وهذه النعم وهذه البركات لها مكانها في القرض الماروني الالهي . نعم ليست هناك اسماء لها ، خاصة بها . ولكن من تصفح كتاب الصلاة هذا علم ان ما هو موجود من هذه النعم والبركات هو مفعولها ومقدراتها الالهية الجبّارة .

ولكن لمَ هذه ؟ وما هي الغاية من اعطائها ؟ والجواب هو انها اعطيت لمقدّم الذبيحة عوضاً عن قربانه . ولمّا كان المسيح هو المقرّب والمقرّب ، الذابح والذبيح كانت اولى هذه النعم ولادة الكنيسة من جنبه ، كنيسة رسالتها

١) القرض الماروني : الجمعة الساعة السادسة صوتا .
٢) فيليبي ٢ /٦-٩ .
٣) افسس ٥ /٢ .
٤) عبرانيين ٩ /١٢-١٦ .

اتمام ما لأجله صار المسيح انساناً . هذا يبارك الكاهن الماروني ربّه على عطيته هذه ويشكره على هذه النعمة الفائقة ألا وهي هذه الكنيسة جسد المسيح وامتداده السري على الأرض فيقول : « مبارك البنّاء الذي شيّد كنيسته على راحة يديه ومن دم حربي من جنبه »[1] .

والكنيسة المارونية لا تبتعد في قولها واعتقادها عن تعليم الكنيسة الجامعة . فهي تعلم ما علمه واعتقده الكثيرون من الآباء . اي ان الكنيسة ولدت من جنب المسيح عند ما ثغرت الحربة جنبه مع العلم ان كثيرين يقولون : ابتدأت الكنيسة عند ما تأنس الابن الكلمة . او عندما حلّ الروح القدس على التلاميذ . يقول القديس افرام : « ان المسيح بنى كنيسته وثبتها بالحق وهو معلّق في اعلى الجلجلة » . وفي مكان آخر . « ثبت اساساتها وبناها بدمه »[2] ويقول القديس يوحنا فم الذهب : « لا بدون سبب ولا صدفة جرى هذان الينبوعان من جنب المسيح اذ منهما ولدت الكنيسة »[3] . وهذا ما علّمه مؤخراً في هذا المعنى البابا بيوس الثاني عشر في رسالته : « الجسد السري » اذ قال : « لقد بدأ المسيح بنيان كنيسته عندما أعطى وصاياه ؛ وكملها عندما علّق ممجداً على الصليب »[4] .

ان الفرض الماروني يقول : « «بنى » ومن المعلوم ان البنيان يتطلب اساساً وحجارة . اذاً كيف يقوم ويرتفع وما هي اساساته ؟ واي حجارة بنيت منها الكنيسة ؟ امّا الاساس فبطرس. فالكنيسة المارونية تدعو جميع بنيها ليرتلوا المجد للذي بنى كنيسته وعلى صمعان وضع اساسها[5] . وفي مكان آخر تعترف ان المسيح قد وضع في اساس الكنيسة لا بطرس فقط ولكن الرسل ايضاً . وأمّا الحجارة لكي يرتفع البنيان شاهقاً فهم الشهداء : حجارة كريمة لا تقوى عليها الاعاصير ولا تنال منها الايام ولا يزيدها التاريخ الاّ جلالا وتبلوراً ؛ جدة وحياة وفي هذا تقول الكنيسة : « لقد بنى المسيح كنيسته وجعل حجارة اساسها الرسل والشهداء الحجارة الكريمة »[6] .

---

١) صباح الخميس النشيد الرابع البيت السابع ؛ ليل الأحد القوبة الثانية فصل .

٢) لامي الجزء الاول ص ٦٧٠ الفقرة العاشرة وص ٣٥٣ الفقرة الثالثة عشرة .

٣) Homélie 85. P.G. 59, col. 463.

٤) الجسد السري ؛ اعمال الكرسي الرسولي العدد ٣٥ ، ١٩٤٣ .

٥) صباح الثلاثاء النشيد الرابع مخصص ؛ الساعة التاسعة من الاربعاء : الفتح مخصص .

٦) ليل الأحد القوبة الثانية نشيد .

رسالة الكنيسة

ولا بدَّ من سؤال يطرح عن غاية ولادة الكنيسة وهل هناك من رسالة تؤدّي؟ ان الكنيسة انما وجدت لتكمل ما بدأ به المسيح . هي امتداد شخص المسيح عبر التاريخ . ورسالتها هي رسالته الا وهي خلاص البشرية . مسؤولية كبرى ألقيت على عاتقها وعليها ان تؤديها كاملة محطمة كل قوة تقف حاجزاً دون تحقيقها . لهذا عليها ان تشنّ حرباً على القوات التي توقف عمل المسيح في النفوس . فهي والحالة هذه سفينة خلاص في بحر العالم تتلاطمها الأمواج من كل الجهات . .

ولكن انّى لها ان تصل الى الميناء وحدها ؟ انّى لكنيسة المسيح ان تقف في وجه أعداء نشر ملكوت الله على الأرض ؟ لهذا . والحالة هي هذه . زوّدها الله بقوى واسعافات لها مفعولها العظيم ، وفي مقدمتها الاسرار ومن بين هذه سر الاسرار ، سر جسد المسيح ودمه .

فالقربان يعطي الكنيسة حياة جديدة ويجري في عروقها دماً جديداً لكي تكون بحق كما سمّاها الآباء القديسون « جيش المسيح »[1] و « عسكر الله الحي »[2] . أمّا كيف يلعب القربان دوره هنا فهذا ما سنبينه في ما يلي :

دور القربان في الكنيسة

ان لجسد المسيح ودمه دورين في الكنيسة . دور سلبي ودور ايجابي . امّا الدور السلبي فهو محو الخطايا التي يولد ابناء الكنيسة ملطّخين بها « وبالخطايا ولدتني امي » ؛ وتقييد الشيطان وتكبيله ومن ثمّ تضميد الجراح التي تركها في نفوسنا عراكنا الدامي مع عدو البشر . حتى اذا ما طهروا ومثلوا الى الشفاء تغذوا من « قوت الأرواح » وساروا في طريق الكمال والقربان زادهم وعربون نعيمهم : هذا النعيم الذي تنشد الكنيسة لا وحدها بل العالم وجميع من فيه من طبائع ناطقة وغير ناطقة . والقربان رابط يوحّد بين الاعضاء ويشدهم بعضهم الى البعض الآخر ، والى الكون بأجمعه ويقوّي بينهم اواصر المحبة فيتبارون باظهار هذه المحبة تضحية وشهادة وذبيحة وهذا هو عمل القربان الإيجابي .

ان الكنيسة وقد تيقنت من واقع رسالتها الصعب علمت انها فعلاً لا تقوى

---

١) يوحنا فم الذهب : عظة في الكهنوت ١ /٦ .

٢) TERTULLIEN, *Ad Martyres*, C.3 (P.L. I, 624 A).

على القيام بها على ما هي عليه من ضعف بسبب الخطيئة التي ورث ابناؤها وبسبب « رئيس هذا العالم الذي لا يزال يضل سكان الأرض بالعجائب التي اوتي ان يعملها »[1] .

والكنيسة المارونية قد حبرت قوة خراب هذا العدو. كيف لا وهي تعلم انه بجسده « اخرج الانسان من الجنة »[2] . لهذا هي تصرخ الآ يدخل اليها فيفتك بابنائها وينهشها كذئب كاسر او يحرقها بسهامه المتقدة ؛ وفي ذلك تقول : « لا يدخل يا رب الذئب المفسد لرعيتك ويفتك بالخراف الموسومة بوسمك لكن ظللنا بجناحك المملوءة مراحم وانقذنا من كل سهام التلاب المحرقة »[3] .

ولكن من يحميها من عدو محتال يتعمد هلاكها. وخطيئة دسمة تطمح انفس ابنائها وشهوة قبيحة تتلقل اعماقها وتعمل على تقويض اساساتها تتهدد مصيرها ؟

محو الخطايا ودحر الشيطان

اذا كان لا بدّ من التغلب على الشيطان عدو الكنيسة ، والسير قدماً نحو الخلاص فليس للبيعة ان تستمد قوة الآ من يسوع المتألم وليس لها الآ ان تغرف من نعم الذبيحة اللامتناهية . ألم يمت يسوع لأجل الخطأة ؟ « ألم يسفك دمه على الجلجلة لأجل خلاصهم ؟ »[4] ان هذا لا يختلف عليه احد فالمسيح ذاته قال ان ذبحه هو عن الجميع « لمغفرة الخطايا » .

والكنيسة في الفرض الماروني تؤمن ايماناً صادقاً وقوياً بموت المسيح لمغفرة الخطايا . فهي ترى ان شعب الله كان اسير الشيطان بسبب الخطايا . لهذا وجب ان يموت الابن ويقدم دمه لأبيه حتى يحرر كنيسته من ربقة الشيطان . لقد قدم دمه ثمناً يشتري به الكنيسة ويفتديها . والمصلي يذكر الاله المتأنس مرات عديدة بعمله هذا . فهو يطلب منه ان « يذكر بيعته التي اشتراها منذ القدم »[5] . واذا اراد ان يطلب منه طلباً يقول له : « أن نفوسنا مشتراة بدمك مفتداة بك »[6] وعلى هذا يشكره باسمه وباسم العالم اجمع لأنه افتدى الجميع

---

١) رؤيا ١٣ /١٤ .
٢) مساء الاربعاء فرضهم .
٣) مساء الثلاثاء فرضهم .
٤) يا أبا الحق الخميس الساعة الثامنة حدها .
٥) الخميس الساعة السادسة فرضهم نحو الآخر .
٦) صباح السبت حدها البيت الثالث .

واشتراهم . وها هو يقول : « في كنيستك يسجد لك الشعوب والامم والقبائل المشترون بك والمفتدون بصليبك »[1] .

«وهكذا حرّر المسيح الكنيسة بموته . وقيّد العدو القوي . وقطع من كل واحد منا رباطاته وكسر اكباله وقيوده وبتحريرها حرّر الكون كله لهذا يشكره الاحياء والموتى ويمجده الناطقون والصامتون لأنه بصليبه انقذهم »[2] .

وبانقاذه الخطيئة محى المسيح خطاياها التي بواسطتها كان في نية الشيطان ان يهلكها . وما غايته من وراء اعطاء سلطانه الكهنوتي لرسله الاّ ان يعمل هؤلاء كما عمل هو ، وان يكملوا ما بدأ به ؛ فيكهنون اسراره حتى يكون القربان نارًا تحرق كل خطايا البشرية التي تبعد الإنسان عن خالقه ؛ وتفرّقه عن اخيه الانسان وحتى يفيد من القربان كل انسان أتى وحد وفي اي زمن وجد . ويكون صليب الفداء ترساً منيعاً يقي البشرية من الهلاك ويحفظها من التلاشي والموت المسببين بالخطيئة . فالقربان وضع لمغفرة الخطايا ولكي تتمكن الكنيسة بقوته ان تعدّ للمجد الابدي شعباً مقدساً طاهرًا . فلو لم يسلّم المسيح جسده لتلك الغاية ولو لم يتألم ويموت ويقوم لما كان باستطاعة الكنيسة ان تمحو الخطيئة وان تتغلب عليها نهائياً وبالتالي ان تعطي لأبنائها الحياة الأبدية .

ونجد علم مؤلف القرض الماروني مفعول القربان وقدرته في محو الخطايا فراح يملأ كتاب صلاته بمعرفته وايمانه . فالمسيح مات لأجل الخطأة ودمه سفك لغفران الذنوب . وسواء كان المسيح على الصليب او على المذبح فهو يدعو اعضاء جسده السري ان يستفيدوا من كنوز محبته هذه . فاذا شاءت الكنيسة ان تتخلص من الخطيئة ترفع عينيها الى ذلك الذي سمّر على الصليب لأجل الخطأة . واذا تمادى ابناؤها وذهبوا بعيدًا في طريق ضلالهم واحست بعظم الخطيئة وندمت على تصرفها المشين فإنّ راحم الخطأة تطلب الغفران والحنان . ولنسمعها تصرخ قائلة : « يا من سمّرت على الصليب بالمسامير ودعوت الخطأة ليحيوا ؛ ها كنيستك تدعوك وبنو اولادها تتضرع اليك فاستجبها يا راحم الخطأة وارسل اليها من كنزك حناناً وغفراناً ومراحم »[3] .

ولا تلجأ الكنيسة الى الصليب الاّ لأنها تعلم ان « بالصليب تمحى

---

١) مساء الاحد النشيد الثاني صفحة .

٢) السبت الساعة السادسة صفحة .

٣) الجمعة الساعة السادسة صفحة .

الخطايا »[1] وهذه التقة القوية والايمان الشديد يتحلى بهما كل من ابنائها . فكما هي . كذلك كل واحد يندم على خطيئته ويصرخ نحو المصلوب الذبيح مستحلفاً اياه « بحق الحربة التي ثغرت جنبه فوق الجلجلة على الصليب ان ينضحه بندى الغفران »[2] .

والمسيح الذبيحة عن خطايانا هو كذلك . سواء كان على الصليب أو على المذبح . ودمه الحي يغفر الذنوب سواء كان معلقاً على الصليب بين السماء والأرض او حوله ايدي الكهنة على المذبح . فالذبيحة واحدة . هو المسيح الذي يقرّب على المذبح واذا قدس الكاهن يفعل ذلك بقوة يسوع هذا تقول الكنيسة . « السجود للابن الذي علّم كهنته واحترهم ليخدموا اسراره »[3] . فالكاهن هو خادم المسيح . التضحية والقربان على المذبح : « يا ابن الحق هذا ابنك ذبيحة ترضيك ... خذه قرباناً من يدي » . وذبيحة الصليب هو مقدّمها وفي ذلك تقول الكنيسة : « مبارك الذي ذبح نفسه » وهو ايضاً الضحية والقربان اذ الدم المهدور على الجلجلة هو دم الابن لمغفرة الخطايا . بالصليب كما رأينا تمحى خطايانا : « وكذلك أيدي الكهنة تقدم الذبائح عن الخطأة »[4] وبكلمة واحدة يقول كاتب نصوص الشحيمة : «ان السيد اولم لخطيبته وليمة وقدم لها فيها الصليب والمذبح المقدس الطاهر الموضوع عليه جسد المسيح لمغفرة الخطايا » .

القربان دواء الحياة

ولم تكتف الكنيسة من القربان ان يخلصها من الشيطان ويطهّر قلوبها من عمله الشرير ؛ بل رأت فيه الدواء الشافي الذي يضمّد الجروحات التي تركها الشيطان والخطيئة في الأجساد والنفوس . فالقربان يدعى في السريانية « حفا وشا » = دواء الحياة لهذا تصرخ اليه الكنيسة قائلة : « ارسل الينا من كنزك دواء الحياة الشافي كلوم انفسنا واجسادنا »[5] . فباتحادنا القلبي مع المسيح نأخذ لنا غذاء ودواء يقوّي حياتنا الروحية ضد كل امراض الخطيئة . وبما ان هذا السر موسوم بوسم الآلام الذي به غلب المسيح الشيطان ، فهو لا يزال يخيف الشياطين ويرعبهم فيولّون هاربين .

---

١) الجمعة السابعة السادسة صلاة صبح .
٢) ستار الجمعة التشبيه البيت الرابع .
٣) ليل الجمعة القومة الثالثة الباعوث .
٤) ليل الاربعاء القومة الثالثة صلاة .
٥) صباح الخميس الصلاة التي قبل التشبيه الثالث .

ومن تصفح الفرض الماروني حتم ان المسيح قد خلّص العالم من قيود الشيطان والخطيئة وحرره من اكبالها وبهذا فتحت بوجهه ابواب السماء بعد ان اغلقت . وغلب الموت فلا قيام له بعد الآن فالقديس بولس يقول : « اين شوكتك واين غلبتك يا جحيم » . ولكن القارئ يلمس ما احدثت الخطيئة في المركب الانساني من بلبلة وتشويش وكيف هدم الشيطان كل توازن في القوى الانسانية . أجل قد خلص ابن الكنيسة من عبودية الشيطان وسلطان الخطيئة ولكنه لا يزال ضعيفاً اذ كل شيء في العالم يستهويه . وكل وسوسة شيطانية تغويه وتولد فيه شهوات كثيراً ما تكون جامحة تقلق مضجعه ، وتحرمه الراحة ، وترجعه الى ما كان عليه نوعاً ما قبل مجيء المخلص . وليس باستطاعته وحيداً ان يصمد في وجهها هذا هو يطر الى سيده وربه طالباً اليه « ان ينجيه . خلق حسده الذي اكله ، من الشهوة القبيحة فيرقد ويناء بالراحة ، وليكن دمه الاطهر له حارساً » . ويستحلفه « بحق ذبيحته عن الجميع ان يبعد الشيطان حتى لا يضره »[1] وما طلبته هذه الا لايمانه بقوة القربان « الذي وضعه فينا ، يسوع ابن الملك ، آية حياة اذا رآها العدو هرب منها »[2] . وفي هذا يقول القديس يوحنا فم الذهب: « اننا ونحن عائدون من مائدة الخلاص نشبه اسداً تزفر خيلاً فتخيف الشياطين » .

هنا ينتهي بنا المطاف مع عمل القربان الصليبي في بناء الكنيسة . هذا اذا امكننا قول ذلك لأن عمل القربان هو عمل دائم ، عمل كل ثانية وكل دقيقة من حياتنا . اذ لولا حياة المسيح الطهور فينا لجرّنا ثقل خطايانا حتماً الى لجة الموت ، وما كان لطبيعتنا الخاطئة الجريح هذا التجدد الدائم في حياتها الروحية والالهية فلهذا ترفع الكنيسة التسبيح والمجد ... للمخلص الذي جعل صليبه سوراً منيعاً لرعيته ، وسلّمه ترس نجاة الى بني ميراثه ، ورفع به رأس رعيته ، وحفظ به قطيع خرافه . ولا تتوقف هنا بل تصرخ: « مباركة يا خشبة الحياة ايها الصليب المقدس مانح الخلاص للعالم . انت انت الراية المنتذة من وجه السهام ، وانت علامة الظفر في القتال . بك يكون لنا السلام ، وتفتخر الكنيسة ويصان بنوها ، وتتقدس اجسادنا ، وتزدهي ارواحنا وتمحى خطايانا »[3] . وفي هذا المعنى يقول القديس افرام : « انحدر دواء الحياة من الأعالي وامتزج

---

١) منار الاحد حده١١ .
٢) صباح الخميس النشيد الثالث منه .
٣) الجمعة السابعة السادسة ذ منه .

بالجسد . الشركة المائتة » . وأيضاً « اعطى الخبز للمائت انما كان الخبز دواء الحيـاة »[1] .

دور القربان الايجابي : بناء الكنيسة

لقد بالغنا في قسمة دور القربان الى طورين . فالقربان حياة وتقسيم الحياة على المنوال الذي عملنا هو ايقاف كل حيوية وقتلها . ولكننا متيقنون ان من يقرأ هذا البحث يعلم جيداً ان دور القربان واحد . والحياة واحدة تعمل سلبياً وتعمل ايجابياً في آن واحد . فالحياة الالهية التي غفرت خطايا . ومحت ذنوباً فبعثت ما كان ميتاً . وأحيت ما كان ميتاً . وأنشأت ما كان مكلياً . واقتلعت من القلوب كل بذرة الى التفرقة والبغض والانانية هي ذ ت ستكون غذاء للكنيسة يسير بها نحو الحياة الأبدية . ورابط وحدة بين المسيحيين بل قل مع العالم اجمع . وعامل محبة وتضحية في سبيل الغير .

فمما تقدم تظهر لنا الكنيسة وكأنها اصبحت قديرة بعد تطهيرها وشفائها من امراضها ونجاتها من كل شهوة شيطانية على السير قدماً نحو الغاية التي لأجلها وجدت . وان تقوم خير قيام بمهام الرسالة التي اليها وكلت ، وعلى عواتقها وضعت . انما الحقيقة والواقع يغايران الظاهر . الكنيسة هي الآن اشبه ما تكون بمريض اشفته عناية الطبيب ، واعادت اليه صحته عقاقيره . وضمدت جروحه بلاسمه وضماداته ولكنه لا يزال بحاجة الى تغذية لينتقل من طور النقاهة هذا الى طور العمل البنّاء . ان الكنيسة بحاجة الى غذاء .

القربان غذاء روحي

ففي الخطاب الذي القاه بعد اعجوبة « تكثير الخبز » يشدد السيد المسيح على انه هو ، هو ذاته ، خبز الحياة . قال لليهود : « انا خبز الحياة . آباؤكم اكلوا المنّ في البرية وماتوا . هذا هو الخبز النازل من السماء لكي لا يموت من يأكل منه ؛ ان أكل احد من هذا الخبز يحيا الى الأبد والخبز الذي سأعطيه انا هو جسدي لحياة العالم . فجسدي هو مأكل حقيقي » . ولقد قال توما اللاهوتي : « ان كل ما يعمله الغذاء للحياة الجسدية ، يعمله هذا السر للحياة الفائقة الطبيعة . فهو يحفظها وينميها وينعشها ويلذّذها »[2] .

---

١) لامي الاول ص ١٥٥/٤ ؛ ٩/٦٠٣ .

٢) الخلاصة اللاهوتية : الثالثة السؤال ٧٩ الفقرة الاولى .III,q,79, a.1 .

امّا كيف يحفظ القربان . الغذاء الروحي . حياة الكنيسة فهذا ما برهنّا عنه في القسم الأول . فيما يلي سنرى كيف انه ينمي هذه الحياة ويحييها .

القربان غذاء روحي للكنيسة لأن المسيح وهبها جسده مأكلاً ودمه مشرباً روحياً . وفي هذا « تبارك من ذبح نفسه لأجلها ومنحها جسده مأكلاً ودمه مشرباً روحياً »[1] .

ومن طبيعة الغذاء انه لا يحفظ من الضعف والتلاشي فقط بل يزيد حيوية وقوة واندفاعاً . ومن خواص الطبيعة الالهية التي اخذناها بالعماد التطور والنمو . ولقد بلغ اعتقاد الكنيسة المارونية في ذلك شأوًا فأعطت القربان نعوتاً تطلق عادة على الغذاء الأكثر فاعلية في نمو الطبيعة الانسانية . « فهو مرعىً خصب دسم ومشرب لا يعطش شاربوه . وهو نار وهو روح » . ومن طبيعة هذه النعوت « دسم ، نار ، روح » انها تحوي على طاقات حرارية روحية اذا ما تفجرت احدثت العجائب . والقربان لم يذبحْ الاّ ليعطي الانسان مثل هذه القوى بل واكثر بما لا يُقَدَّرُ اذ ان عطية الله ذو قوة لا متناهية . فالمسيح بذبحه : « وضع امام كنيسته مرعىً خصباً دسمًا ومزج بمحفلها مشرباً لا يعطش شاربوه فما عليها اذًا الاّ ان تتقدم فتأكل في الخبز نارًا وتشرب في الخمر روحاً »[2] .

وغاية هذه العطية هي ان تنمي فينا القوى الالهية فنصل بفضلها الى اسمى ذرى الكمال الروحي ونتّحد بالله. فالكنيسة تأكل جسد الرب «وتشرب دمه حتى تتزين بالنار والروح وتدخل معه الى الملكوت » . وغاية الكنيسة هي الاتحاد الكلي بالله كمال الكائن البشري وغايته القصوى . ودور الافخارستيا هو ان يقودنا اليه تعالى . وذلك يحدث عند ما نأخذ يسوع بالمناولة عربون حياة ابدية ، و « عربون نعيم دائم » فيعطينا قوة تساعدنا لنصعد طريق الجلجلة التي تؤدي بالمسيحي الى المجد السماوي .

ولقد حسنت تسمية القربان « بزاد أخير » او « زاد السفر »[3] او « زاد البركات »[4] . فمن المعلوم ان للزاد قيمة اذا ما ابتعد الانسان عن بيته وخاصة اذا كانت غايته القيام بسفرة طويلة . ولقد فهم الموارنة قيمة الزاد الروحي كما

---

١) ستار الأحد التشبيه ٥٥٥ .

٢) ستار الاحد التشبيه ٥٥٥ .

٣) صلاة شكر في القداس الماروني — جناز الرجال الحن الثاني .

٤) صلاة للبيت ٥٥٥٥٥٥ .

فهمته الكنيسة . يخبر المطران جبرائيل الصهيوني (١٦٥٨) انه من عادة الموارنة حتى القرن الثالث عشر ان من يذهب منهم في سفر خطر او الى حرب كان يحمل معه القربان كزاد »[1] : ولما كانوا لا يجهلون ما للقربان كغذاء من مفعول في تجديد القوى التي تخسرها يومياً راح كهنتهم « يختلون بسر جسده ودمه ويرون القطيع كل يوم بالايمان موارد كأس الحياة والخلاص » . حياة جديدة تجدد ما عتق وتخلص الكنيسة مما علق بها من خطايا عرضية قد تعيق سيرها نحو الأبدية . أليس في هذا المعنى ما يقوله المجمع التريدنتيني . « تحسن المناولة غالباً وكل يوم اذا امكن » .

ويستقي القرص الماروني ما اتى فيه من تقليد الكنيسة الجامعة ترتيليانوس « Tertullien » يقول : « ان جسد المسيح يغذي جسد الذي يتناوله »[2] . ويقول القديس يوحنا فم الذهب : « اعطانا جسده لنسكه ونأكله . يا لحب اللامتناهي ... لقد اعطانا جسده ليشبعنا بمحبته »[3] . ويقول افرام السرياني بلسان السيد المسيح : « اعطيكم خبز الحياة »[4] .

وانه لمن الطبيعي ان يترك لنا المسيح هذا الغذاء الروحي عربون محبته . لأن غاية تجسده وافتدائه البشرية الخاطئة انما كانت ليشرك الانسان في الطبيعة الالهية (٢ بطرس ١/٤) . وما هو مسلم به ان بذار الحياة الالهية التي وضعها المسيح في الانسان تحتاج الى غذاء يتلائم مع ذات جوهرها وذلك لحفظها وانمائها وازدهارها . وهذا ما دفع بيسوع فوضع سر جسده ودمه ؛ وهذا ما حدا به ان يلح شديد الالحاح في ان يتغذى الجميع من هذا الطعام الالهي . وعلى هذا الدستور وهذه الشريعة نهج الكهنة في الكنيسة من عهد الرسل حتى الآن . وهذا سيدوم ما دام وجود وذلك حتى يظل القربان مصدر قوة في العالم تؤتي طاقات البطولة في مختلف ميادين الفضيلة والقداسة ، البذل والعطاء .

وهكذا يفيد ابناء الكنيسة بتقربهم من المناولات العديدة اليومية عن اهلية واستحقاق : اي وهم في مجال النعمة ؛ قوى لا متناهية تساعدهم على تفهم اقوى وجدانية للمسيح ومحبته محبة اشد ؛ « لأن القربان لا ينفع من كان بعيداً

(١ HANSSENS, *Institutiones liturgicae de ritibus orientalibus*, t. II, p. 500, II, Rome, 1930.

٢) ترتليانوس : في قيامة الأجساد *De Resurrectione Carnis*, 8 .

٣) في الرسالة الاولى الى الكورنثيين العظة ٢٤ / ٤ .In I. Cor. hom., XX IV,4.

٤) لامي الأول ص. ٣٧٩ الفقرة ٦ / ١٤ .

عن ابن الله »[1] بل من عاش معه واحبه . عندئذ يبتعد المؤمنون عن مائدة الخلاص وقد اخذوا لنفوسهم دافعاً للمحبة حاسين بتجدد في حياتهم الداخلية .

وهذا التجدد الداخلي ، والمحبة الجيّاشة الفيّاضة « لأن القربان هو سر المحبة والسر الذي يعطي المحبة » — حسب القديس توما اللاهوتي — يتنحان عيون المسيحي الداخلية فيرى عظم محبة المسيح للجنس البشري : فيرى جسد الرب ودمه منفصلين على المذبح كما على الجلجلة : ويفهم عندئذ ان المسيح لم يمت عن البشرية بنوع غامض بل مات لأجل كل انسان في اي عصر وجد وفي اي بلد كان ولهذا هو يقدم ذاته كل صباح لكل النفوس كما لو ان كل واحدة منها كانت بنوع خاص موضوع محبته الوحيد . وهكذا يتمكن كل مؤمن ان يردد مع القديس بولس: « احبني وبذل نفسه دوني » فأتناوله كطعام حتى انه كما اصبح واحداً مع الخبز الذي آكل ، اغدو واحداً مع المسيح . وهنا بلغ الحب ذروته وهل اسمى منه واروع ؟

القربان غذاء للشهادة

لكن لا يليق المسيحي الذي يتناول بتقوى جسد الرب ويفقه نبل محبته لبني البشر ان يبادل المحبة بمحبة . فوجود المسيح بكل طاقاته الالهية والانسانية في قلب الانسان ليس وجوداً سلبياً ميتاً بل هو وجود كله حيوية . الم يقل السيد : « اني جئت لألقي ناراً على الأرض ولا اريد الاّ اضطرامها »[2] . ويأتي الى قلوبنا ايضاً ليلقي فيها ناراً لا تلبث ان تحدث حريقاً يجعلنا نلهب في محبته . ولقد كان القديس منصور دي پول يقول : « الا تحسوا ايها الاخوة بالنار الالهية تضطرم في صدوركم عند ما تتناولون جسد الرب » ؟

وفي الفرض الماروني نرى الشهداء كأناس امتلأوا من محبة الابن فقهوا هذه المحبة : عرفوا انه الوحيد الذي قدر ان يقدم الذبيحة للعدل الالهي وليست اية ذبيحة بل جسده ودمه ، ورأوا انه لولا محبته لكانت البشرية تئن تحت وقر الخطيئة وانّى لها ان تخلص لولاه ! ومن جهة ثانية فهموا ان المسيح لا يزال يطلب ان يكون في كل العصور ذبائح تقدم ذاتها مثله عوضاً عن المجموع . مروره وسط العالم كان عابراً فوجب ان يوجد من يكمل عمله . « الشهداء وهم

١) ليل الأحد القوية الثالثة ، حمعا لامي الثالث ص ٢٣٩ .
٢) لوقا ١٢/٤٩ ؛ حمعا .

الحملان البررة والودعاء. تأملوا بالحمل الالهي الذي صار ذبيحة فصاروا لأجله ذبائح وقد تلهبوا بنار محبة الله »[1].

في البدء كانت الكنيسة تطلب من القربان ان يكون لها ترساً يقيها شر الخطيئة ويساعدها ان تصمد قوية في وجه كل الشهوات التي تعترض فيها سبيل اعبة التي نبعت من اعالي الجلجلة. ولكن بعد أن أمنت شرّ الشيطان ومكايده اتيح لها ان تتجه نحو الكمال وان تصعد درجاته بكل حرية مجتهدة ان تعمل اعمالاً ايجابية في هذا المضمار. لقد وصلت الآن الى درجة ترغب فيها ان تموت لتحيا مع المسيح وهذه اسمى الدرى الروحانية التي تتحد بها النفس بالله اتحاداً وثيقاً ولقد قال السيد المسيح: « من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه ».

ولقد مرّ الشهداء في هذه الدرجات. هم ايضاً فاضلوا في سبيل الحصول على الكمال المسيحي تدفعهم القوة القربانية الكامنة فيهم ولما وصلوا الى درجة سامية يغذيهم القربان راحوا يقدمون ذواتهم ليغذّوا بدورهم الكنيسة ويزينوا تاجها بحجارة كريمة جديدة. فالمناولة قد وحّدت نوعاً بين ابناء الكنيسة وبين المسيح « لأن جسد المسيح ودمه امتزجا بأعضائهم فوحّد الرب لاهوته بناسوتهم؛ وناسوتهم بلاهوته؛ حيويته وميتوتهم. اخذ ما لهم ووهبهم ما له »[2] وكأن نفسه قد غذت نفوسهم فتسيّر سلوكهم. فغدا همهم الأول ان يرضوه في كل ما يصبو اليه ومن هنا كانت نقطة الانطلاق والتحول في حياتهم فهم ليسوا كما كانوا. من الآن وصاعداً هم يقاسونه افكاره ويعتنقون رغائبه وارادته ورغبتهم الأولى هي تحقيقها لأنهم « ليسوا هم الذين يحيون بل المسيح يحيا فيهم ». وهكذا يدفعهم الى الكفر بذواتهم ونسيانها؛ والى التضحية بأنانيتهم وذبحها لا يفكرون الاّ بالسيد؛ ولا يعيشون الاّ له. ويا لسعدهم اذا ساهموا في تتميم ما لأجله اتى الى العالم.

وكيف لا وهم قد شربوا من الخمرة التي اريقت على الصليب فسكرت عقولهم وشاهدوا السيوف والنار المخيفة بأم العين وما ارتعدوا لأن نار محبة الابن الاله توقّدت في اذهانهم »[3].

وهكذا يظهر لنا القربان وقد لعب دورين في حياة الشهداء. والجملة التي

---

١) ليل السبت القوبة الثانية حمعما .
٢) القداس الماروني قبل مناولة الكاهن .
٣) مسد الجمعة النشيد الاول حمعما .

سبقت هي شبه ملخّص لعمل القربان في المسيحي. فما اقدام الشهداء وبكراهم لذواتهم مفضلين الموت في محبة المسيح على الحياة بدونه ؛ وما احتقارهم العذابات الشديدة المتنوعة والهزء بها ، والاسراع الى دخول الجهاد وابغاضهم لشهوة العالم الزائل وشجبهم لابليس : وانتصارهم عليه سوى نتيجة لارتوائهم من تلك الخمرة التي عصرها اليهود على الصليب ، وشربهم منها حتى السكر . هي نار شعت في داخلهم فحوّلت كيانهم وادّت بهم الى ما رأينا : بغض للحياة الزائلة ، وتغلب على الشيطان ، واسراع الى الموت . والاستشهادات عديدة في الفرض الماروني والافكار ذاتها ترد نوعاً ما كل يوم من ايام الاسبوع[1] .

«من الخمرة التي عصرها اليهود على رأس الصليب شرب الشهداء ولم يخافوا بل اسرعوا فدخلوا الجهاد وتغلبوا على كل الصيقات»[2] وما هذا الاّ لأنهم ارتووا من هذه الخمرة « فظفروا بحربهم وجهادهم وشجبوا الأبالس وانتصروا»[3] وفي الفرض يُذكر « ان شهادتهم هي تشبّه بشهادة رئيسهم الذي اهرق دمه وارواهم فاستهانوا الأعذبة المرة وتخروا بها »[4] . يقول القديس قبريسانوس « ان الذين نعدهم ونحثهم للجهاد يلزمهم اسلحة وثياباً تقيهم من سهام العدو. فجسد الرب ودمه يحفظانهم ، اذ يجب ان يكون القربان ترساً للذين يأخذونه والذين نريد ان يصمدوا في الجهاد . فكيف نعلمهم ونحثهم ان يهرقوا دماءهم مقتدين بالمسيح ، اذا كنّا نرفض اعطاءهم جسد الرب ؟ كيف يمكنهم ان يشربوا من كأس الشهادة اذا كنّا لا نقبلهم يشربون في الكنيسة كأس المسيح »[5] .

هكذا غدا الشهداء في كل الكنائس «كأشجار الفردوس الشهية حتى انه كما الاشجار تعطي الاثمار في هذا العالم الزائل كذلك يعطي الشهداء الاسعافات من القوة التي حلّت بأعضائهم »[6] . قال ترتليانوس : « ان دماء الشهداء هي بذار خيّر للمسيحية ». والكنيسة المارونية لا تكتفي بهذا بل هي ترى ان خطيبة المسيح قد تشيّدت على تضحياتهم ؛ « هم حجارة كريمة

١) الشهداء فرض خاص بهم في صلاة الليل لكل نهار . القوبة الثانية . هذا عدا المرات الكثيرة التي يرتّل بها على ذكرهم . مثلاً القطعة الثانية من باعوث القوبة الرابعة هي دوماً للشهداء .

٢) الجمعة الساعة السادسة ف‍ص .

٣) ليل السبت القوبة الثانية ف‍ص .

٤) ليل السبت القوبة الثانية ف‍ص .

٥) CYPRIEN, *Epist.* LVII,2, ainsi dans *Eucharistia*, p. 58.

٦) ليل الأحد القوبة الثانية ف‍ص .

جعلها السّماء في اساس كنيسته »[١] « وعظامهم موضوعة فيها كنوز حياة منها يجري غنى المحتاجين »[٢].

ولا نستغرب هذه الأقوال : أما شيدت الكنيسة معابدها : حيث وجدت : على عظام الشهداء . أما قدست الدبائح على قبور الشهداء وحتى الآن عندما تبنى كنيسة جديدة ألا توضع في المذبح عظام الشهداء ؟ وكأني بالكنيسة تريد ان تبرهن بهذا عن الاتحاد الوثيق الذي وصل اليه الشهداء مع المسيح فحصصت ثم المذبح الذي منه تأتينا كل النعم « من الآن وصاعداً اكون مذبحاً وذبيحة وغفراناً » يقول القديس افرام بلسان السيد المسيح.

وهذا الاكرام يليق حقاً بالشهداء . لأنهم بتضحياتهم : التي هي عملية الانسان الكاملة لله : حوّلوا خبر حرابهم على معنى الافخارستيا الذي هو عطية الله الكاملة للانسان وزيادة عن النعم التي يشتركون في اعطائها العالم هم لنا علامة الاتحاد الوثيق بالله وعربون له لأن القربان هو في اصل هذا الاتحاد والباعث اليه . تصلي الكنيسة اللاتينية هكذا : « نقدم اليك ايها الرب الاله هذه الذبيحة التي كانت المصدر الحقيقي لاستشهاد محبيك حتى نكرم موتهم »[٣].

القربان رباط المحبة

القربان غذاء والشهداء يمدوننا من القوة التي غذتهم وهكذا يصبح بمقدار الكنيسة ان تمشي اكثر قوة تفكر بالله ولا تفكر الاّ به . واذا اتجه الاخوة نحو بعضهم بعضاً واذا ما اعاروا الآخرين انتباهاً فما ذلك الاّ محبة بالمسيح الذي هو « رباط المحبة وعلامة الوحدة » كما يقول القديس اغوسطينوس .

امّا وقد وصل ابن الكنيسة الى هذه الحالة فامتلأ من سر المحبة وعبر عن امتلائه بمحبته لله حتى بذل النفس فلا يمكنه ان يتوقف عند هذا الحد بل انما محبته تشع في الاتجاه الثاني اي ان محبة الله لا تنسيه محبة اخيه الانسان وكيف هذا والله محبة ؟ اتلتمس المحبة ما هو لها كما يفعل الأناني ؟ ألا يعلمنا القديس يوحنا : « ان قال احد اني احب الله وهو مبغض لأخيه فهو كاذب لأن من لا يحب اخاه الذي يراه فكيف يستطيع ان يحب الله الذي لا يراه » ؟ (يوحنا ٤/٢٠).

---

١) الساعة التاسعة من نهار الأربعاء ٥هـ .
٢) ليل الخميس القوية الرابعة ٥هـ .
٣) Secrète de la IVe Férie après le 3e dimanche de Carême.

ان في القداس الماروني اكثر من نص يدلنا على ان القربان هو « رباط المحبة » . ان هذا التعبير موجود في السريانية فيقال في القربان انه « ʾḥdʾ wšmḥʾ » « رباط المحبة » . ولهذا عندما تطلب الكنيسة تقول : « امنحنا ازمنة السلام وخصب الصالحات واربطنا برباط محبتك ومحبة بعضنا بعضاً »[1] .. وهناك تعبير ثان في نعت القربان . فهو « نار محبة الابن » وقد رأينا ما كان مفعول هذه النار في قلوب ابناء الكنيسة فراح الكثيرون منهم يردون على هذه المحبة بالمحبة ورأينا خاصة كيف وجدت لها في قلوب الشهداء مسالك طيّبة فكانت مقابلة المحبة بالمحبة قوية سامية . وهل من شخص طالب بالمحبة حتى التلاشي فنالها بالقدر الذي طالب بها المسيح وحظي عليها ؟ فهذه النار ايضاً اذابت القلوب كل القلوب حتى ما عادت تكتفي ان تبتسر بها « لنحب بعضنا بعضاً محبة كاملة لا انقسام فيها شأن التلاميذ المجاهدين »[2] بل راحت تطلب من السيد ان يُنيلها هذه النعمة نعمة اظهار المحبة في الأعمال . فهي لا تريد ان تنعم وحدها بل تطلبها للجميع فهي ترجو السلام للعالم ، وازدهار الوطن والمدينة ، والدير . وتصلي للمرضى ، والأرامل واليتامى ، المسافرين ، الفقراء ، ولا تنسى انفس الراقدين فتطلب لهم الرحمة وغفران الخطايا ، وحياة هادئة ، وآخرة صالحة ... [3] . وعلى سبيل المثال نورد هذه الصلاة : « ليكن ايها الرب الاله الأمان لبيتك ، والسلام لأديرتك ، والشفاء لرعيتك ، احفظ كنيستك بحنانك ليخدموا قدامك بالبر . اغفر للخطأة فيرجعوا اليك . اقبل التائبين بعذوبتك ، اغنِ الاغنياء بالصدقات ، عُلْ المساكين بحنانك ، قت الأرامل بنعمتك ، ربّ اليتامى بمحبتك ، اعضد الشيوخ بحنوك ، احفظ الشبان بصليبك . اجمع المشتتين لحظيرتك ، ارجع الضالين لمعرفتك ، بارك الأبرار بعطفك ، ثبت البتولين بارادتك ، احفظ المتزوجين بالنقاوة ... »[4] .

ففي هذا كفاية حتى يظهر لنا الافخارستيا كسرّ محبة . نعم ان كلّ سر من اسرار الكنيسة يقوي فينا محبة بعضنا بعضاً . ولكن هذه الفضيلة تبلغ سموها واقصى حدودها مع الافخارستيا . هو المسيح يعمل فينا ويجعل في كياننا تحويلاً ، والمسيح هو المحبة بالذات . فهو لا يخلص نفسنا فقط من كل الأهواء

---

١) ليل الاثنين القيمة الأولى فرومين .
٢) مساء الأحد النشيد الثاني لحمد يحنّا .
٣) هذه هي العناصر التي تكون الصلاة الجامعة بل الصلوات التي لا يخلو منها فرض من فروض الشحيمة .
٤) الثلاثاء الساعة الثانية فرومين .

والعواصف التي تعبق فينا سبيل المحبة بل انما يقلقل اعماق كياننا النفسي موحياً نفسنا نحو اعمال محبة ايجابية كإعطاء الذات وتضحيتها . كيف لا تكون هذه حالة من تناول المسيح بقلب محب ؟ كيف لا تكون له هذه مشاعره واحساساته وقد امتزجت هذه بمشاعر المسيح واحساساته النبيلة فرفعتها : الا يقول الكاهن : « انك امتزجت بنا ونحن امتزجنا بك »[1] .

القربان علامة الوحدة

ان القديس بولس يعلمنا ما معنى ان المسيح امتلكنا . فنحن لا نتمكن ان نحبه الاّ ان نحب من يحب ولا يجذبنا اليه الاّ ونتحد بكليتنا نحو اخواننا . فلا يمكننا ان نفصل بين المسيح والآب الذي هو محبة ولا بين المسيح واعضاء جسده . فالافخارستيا واحدة وحدة لا تتجزأ .

هذه المحبة التي هي « تمام الناموس » و « رباط الكمال » تصهر العناصر التي تؤلف الكنيسة على اختلافها في بوتقة الحب الواحد وجمع الأعضاء في جسد واحد ؛ وتهدم الحدود التي اقامتها الأنانيات الفردية والاجتماعية . « فثمة ليس بعد يوناني ولا يهودي ولا ختان ولا قلف ؛ ولا اعجمي ؛ ولا اسكوثي ؛ ولا عبد ولا حر ؛ بل المسيح ؛ الذي هو كل شيء وفي كل شيء »[2] .

وهكذا نجد ان القربان هو « علامة الوحدة » كما هو « رباط المحبة » . وفي الحقيقة عمل القربان واحد . فهو في آن واحد يربطنا برباط محبته ويمنطقنا بمنطقة وحدته . فالمحبة تجمع وتوحد القلوب كما ان الوحدة هي مصدر محبة بين اعضاء الجسد الواحد . واننا نجد في القرض الماروني صلاة يطلب فيها الكاهن من الله « ان يربطنا برباط محبته ومحبة بعضنا بعضاً » ؛ ثم يطلب منه « ان يمنطقنا بمنطقة الايمان الواحد ويوحد بعضنا للبعض الآخر »[3] .

فمن هو مبدأ الوحدة هذه « سوى حمل الله الحي الذي تكلم من على الصليب وعلى صوته اللذيذ والشهي تجمعت الشعوب حوله وقد كانت متبددة في عبادة الأصنام ؛ والملك المختار الذي وضع على منارة الصليب فوافت جميع البرايا مسرعة للتلذذ باستنشاق طيبه » . فأسرعت هذه الشعوب والبرايا

---

١) صلاة القديس الصلاة التي تلي النشيد الأول .
٢) كولسي ٣ / ١١ .
٣) ليل الاثنين القيمة الاولى فرويون .

ووجدت مَن وحَّد بينها وجمعها حوله : وجدت المسيح « الذي كسر جسده واطعمها »[١] .

فدعوة المسيح لجميع الشعوب واتكاؤهم على مائدته الخلاصية الواحدة وتقديمه لهم جسده الواحد لا بدَّ من ان يخلق بينهم رابطاً يوحدهم . لأن الخبز واحد فالجماعة التي تشترك فيه واحدة . فالمسيحيون يشكلون وحدة روحية لأن جسد المسيح الحي هو خبز الكنيسة الواحد الذي يأخذنا كلنا اليه . وبما اننا نحيا كلنا من حياة واحدة لهذا لا نؤلف الا كائناً واحداً حياً . فلقد قال المسيح « كما ارسلني الآب الحي وانا احيا بالآب الذي يأكلني يحيا هو ايضاً بي» .[٢]

وفي القرص الماروني يظهر من طلبات الكنيسة السلبية ان القربان هو « علامة الوحدة » . انها تطلب من القربان ان يجعل الأمان سائداً في اربع اقطار العالم وان يزيل منها الخصومات والانشقاقات والشكوك الرديئة وان يقيم فيها رعاة يسوسونها بحسب مرضاته ويحمون بنيها في حضنها بالايمان الحق . « وان يكون صليبه حافظاً لرعاتها فيجمعوا به القطيع نحو والده »[٣] وهل اقوى وادل على هذه الوحدة من كلمات الكاهن قبل المناولة وذلك بعد ان يكون رشَّ من الدم على الجسد ومزج الجسد بالدم ؟ « وحِّدت يا رب لاهوتك وناسوتنا وناسوتنا ولاهوتك : وحيويتك وميتوتنا ؛ وميتوتنا وحيويتك : اخذت ما لنا ووهبتنا ما لك » . ففي هذه الكلمات معنى يدل على الجماعة الواحدة التي وحدها السر الالهي وما رش الجسد بالدم وطرحه في الكأس الا رمز لاتحاد الرأس بالاعضاء من رؤساء وكهنة وشمامسة ومؤمنين . وقديماً كانت الكسر المقدسة الممزوجة بالدم ترسل للنائبين حتى يتيقن الجميع انهم واحد مع المجتمعين للذبيحة رغم بعدهم عنهم .

من ثمار الوحدة : المحبة الشاملة

ولا عجب اذا فكرت الكنيسة وقت الذبيحة بالغائبين من ابنائها بعد الذي يظهر لنا من صلاتها الشاملة في الشحيمة . فهي تطلب الأمان ليحل في ديارها وبين محبيها . وتتضرع حتى يخيم ايضاً على العالم اجمع « ليحل امانك يا رب في اربعة اقطار العالم » وامن يا رب اقاصي المسكونة ولاش

١) الثلاثاء الساعة السادسة فتوضح .
٢) يوحنا ٦/٥٨ .
٣) ستار الاحد للنشيد .

الحروب والخصومات من كل الخليقة »[1] هذه هي صلاة الكنيسة . «فالمسيح خلص الجميع بدمه »[2] والعهد الجديد الذي اخذه على نفسه تجاه ابيه انما كان ليخلص الشعوب كلها ، ارسل ابن الله من جبل الزيتون العهد الجديد للشعوب التي خلصها بصليبه »[3] فالمسيح جاء يقدم نفسه فداءً عن البشرية الخاطئة يحملها كلها في قلبه « وأهرق عن كل شخص من افرادها نقطة دم معينة » كما قال بسكال .

وكأني بالصليب « منهل الدم المقدس والشهير الذي فاض على الجلجلة في متوسط الارض »[4] لا يزال مركزاً حتى الآن في وسط الأرض منذ ليلة العشاء السري شجرة حلاص البدية اذ قال المسيح « اصنعوا هذا لذكري» . وهو لا يبرح يعطي الغفران قوة آلامه وموته وقيامته اذ عندما يقدم الكاهن الذبيحة الالهية يجدد المسيح عندها مفاعيل ذبيحة الصليب الاستاذية. وهكذا يتابع عمله الخلاصي طالما ان الذبيحة تصنع لذكره . ألم يقل ايضاً : « من اجلكم ومن اجل كثيرين يهراق هذا الدم » .

اما كيفما تم الفائدة العالم كله فهذا سؤال لا جواب له في الشحيمة . ولكن البطريرك الدويهي يقول : ان القربان يفيد الجميع بصفته سر وذبيحة . فمن حيث هو سر يفيد الذين يتناولونه . ومن حيث هو ذبيحة فيفيد العالم أجمع « ان جسد الرب يفيد كذبيحة الذين يقدم عنهم . وهذا السر يفضل جميع الاسرار لأنه يحوي النعمة ورب النعمة . وكما ان الرب بموته على الصليب منح الغفران كفوءًا لجميع الناس كذلك اعطانا جسده في القربان وامرنا ان نقدسه لذكرى موته حتى يكون فاعل الغفران في كل واحد منا يتناوله او يقدم من اجله » .[5] وهذا ما يعنيه اللاهوتي الأب « De la Taille » عندما يقول : ان القربان : السر والذبيحة . والسر لأنه ذبيحة يكمل الخلق الأبدي وذلك بامتداده عبر انسانية الابن الى الاعضاء الذين يكونون جسده الى الأبد »[6] .

---

١) صباح الاربعاء العلاة الرابعة .
٢) السبت الساعة السادسة ص١١ .
٣) ليل الاثنين القيمة الرابعة النشيد البيت الخامس .
٤) ليل السبت القوة الثانية ص٥٥ .
٥) اسطفان الدويهي منارة الأقداس الجزء الثاني ص ٣٩٩
٦) الموسوعة القربانية الشعبية ١٩٤٧ ص ١٩٣ / *Eucharistia* ٥

وفي الترنيم الماروني مقطع يدلنا على مفعول القربان الموضوع في العالم. وان لفيه نظرة الى المستقبل تدلنا كيف ان البشرية وكأن مسّاً اصابها تهرع الى المسيح وتربض عند اقدامه اذ به وحده يجد الانسان غايته القصوى. وكأني بالبشرية ممسكة بالصليب. ناظرة الى المصلوب وقد اعياها التعب المضنك والتفتيش المملّ مرددة كلام السامرية «اعطني يا رب من هذا الماء فلا اعطش» (يو ٤/١٥) وآخذة لها كلام القديس بطرس: «الى من نذهب يا رب؟ وعندك كلام الحياة الأبدية (يو ٦/٦٩) وهذا هو النص الماروني «ايها السبت المختار الذي وضع على منارة الصليب فوافت جميع البرايا مسرعة للتلذذ باستنشاق طيبه. يا ابن الملك النهي والمجد الذي احنى السماوات وانحدر لأجل خلاص اولاد آدم. يا حمل الله الحي الذي تكلم مع على الصليب وعلى صوته الشديد والشهي تجمعت الشعوب حوله وقد كانت متبددة في عبادة الأصنام فمنح امامهم باب العماد وبالمياه النقية غسلهم وبررهم من ادناس الآثام. كسر جسده واطعمهم وبدمه الحي غفر خطاياهم وذنوبهم»[٣]. وفي مقطع آخر تظهر لنا البشرية في اوج فرحها وغبطتها لهذا رأت ان تشكر «المخلص الذي ابهجنا اذ آمنت بصلبه» ولكن اتى لها وحدها ان تقوم باداء الشكر فراحت تصرخ وتنادي الكون باجمعه بمن فيه وما فيه من خلائق عاقلة وغير عاقلة حتى يشاركها بالتسبيح اذ الخلاص كان شاملاً: والحياة عامة. فخلص الانسان وعادت اليه الحياة واعتق الكون معه. فليحول الآن انينه الى اناشيد وفي هذا يقول الذين آمنوا بالصليب «يا جميع الاحياء الناطقين ويا جميع الطبائع الغير الناطقة سبحوا الرب لأنه نزل من السماء ولبس جسداً وعلق على الصليب ومنح البشر حياة وخلاصاً. يا كنيسة الله جميعها ويا جميع من فيها من كهنة سبحوا الرب لأنه بقيامته فرح كنيسته وابهج جوقة التلاميذ ومنح البشر حياة وخلاصاً[٤].

القربان عربون حياة ابدية

فيبدو لنا مما تقدم ان القربان مبدأ حياة لا يخلصنا من الموت فقط بل يجري في الجسد السري الحياة الالهية وهو مبدأ تغذية يغذي هذه الحياة. فدمه الثمين هو حياة ودفق حيوي على الصعيد الروحي يجري في عروق الاعضاء فيحفظ قواها الالهية ويجددها ويربطها برباط المحبة. ويظهر لنا انه تيار لا يسيّر الكنيسة في الحياة الحاضرة فقط بل يرافقها الى الحياة الاخرى. ألم يقل

٣) ليل السبت القوبة الرابعة التشبيه.

المسيح في انجيله « من يأكل جسدي ويشرب دمي له الحياة الأبدية وانا اقيمه في اليوم الاخير »[1] .

وفي القرض الماروني تتبين لنا هذه الفاعلية جليّة . فالمسيح « جاءنا من مريم خبز الحياة اكله آدم وقام حياً من الموت »[2] وآدم هنا هو كل انسان يتقدم من المائدة . « فالذين اكلوا جسده وشربوا دمه الطاهر يقومون من التراب وبه ينتفضون من الرميم وبه يتوشحون حلة المجد »[3] . فيظهر من النص ان القربان هو قوة تبعث المائتين من القبور وتلبسهم حلّة المجد الأبدية . وتدوّن اسماءهم في سند ملكوت العلاء . وتنقشها على مذبح العلاء المقدس وذلك بعد ان تكون انقذتهم من النار الجهنمية وفي هذا تصلي الكنيسة قائلة : «انقش يا ابن الله الحي على المذبح المقدس في العلاء اسماء المؤمنين الذين انتقلوا من ابناء الكنيسة . فان جسدك ودمك امتزجا باعضائهم فلتطفأ النار الجهنمية فلا تدنو منهم . فمك يا رب وعد وقال : من يأكل جسدي ويشرب دمي هو فيّ وانا فيه ويرث الملكوت »[4] .

ولشدة ايمانها بقوة القربان الخلاصية لا تحجم في ان تعيّن لكل عضو من اعضاء الجسد متعته في الحياة الاخرى وذلك جزاء لما قامت بها هذه الاعضاء هنا من اعمال خلاصية فهي تلتفت الى المسيح وتقول له : « الأعين التي شاهدت مجدك هنا فلتشاهد هناك حنوّك العظيم . والآذان التي سمعت صوت اقوالك لا تسمعنّ يا رب اصوات الألم ؛ والافواه التي وقفت في الكنائس اهلّلها يا رب لترتل المجد ؛ والالسن التي صرخت قدوس مرّتها على تمجيدك ؛ والايدي التي زينت جسدك ودمك فلتأخذ منك غفران الذنوب ؛ والأرجل التي ترددت الى اهيكل اسلكها في طريق الحياة »[5] . وهكذا يتمكن لأبناء الكنيسة جميعهم « ان يلتقوه بوجوه سافرة ويستريحوا في مساكنه السماوية في منازل اللذات النيّرة وخاصة الذين تناولوه بأفواههم زاد البركات »[6] .

وفي هذه تستقيّ الكنيسة ايضاً من التقليد الذي استقى منه الجميع فأتت

---

١) يو ٦/٥٥ .
٢) صباح الاربعاء النشيد الثاني البيت السابع .
٣) الثلاثاء الساعة السادسة ٥٥سا .
٤) ليل الثلاثاء النشيد ٥سا .
٥) مساء الاربعاء السواعيت .
٦) مساء السبت قرومين نحو النصف .

صلاتها واعتقاداتها مطابقة لصلوات آباء الكنيسة وتعاليمهم فيرى القديس اغناطيوس الانطاكي في القربان دواء لعدم الموت وعربون حياة خالدة مع المسيح. والقديس اثناسيوس « قوة واقية وعربوناً للقيامة والحياة الابدية » وآباء نيقية « سر انبعاثنا ». والقربان هو « لأجسادنا قوة عدم فساد. ولقد قال لاون الثالث عشر في احدى رسائله عن القربان : « ان هذا السر العظيم هو سبب السعادة الخالدة وعربون المجد الابدي لنفوسنا واجسادنا ... ان اجسادنا الضعيفة الواهية تنتعش يوم القيامة بفضل القربانة الالهية. لأن جسد المسيح الغير المائت يزرع فيها بذار عدم الموت الذي يثبت لساعته ومن هنا تتأتى للنفس والجسد نعمة المجد والخلود. وهذا علّمته الكنيسة دوماً معتمدة على كلام المسيح بالذات »[1].

قال السيد المسيح : « بدوني لا يمكنكم ان تعملوا شيئاً ». وبالفعل ان رسالة الكنيسة صعبة بدون المسيح. هذه الرسالة التي لأجلها اتخذ المسيح جسداً ترابياً. والتي لأجل تسليمها كاملة تامة « صار الكلمة جسداً ». وليس من السهل يقدر ان تتحمل الكنيسة اعباء هذه المهمة لو لم يكن المسيح معها. ومن هنا كانت ذبيحته اليومية حتى يغذي المؤمنين ويمدهم بامكانياته الالهية. لقد قال القديس توما : « ان المسيح يعطي كل واحد منّا بواسطة سر الافخارستيا ما اعطاه للعالم في سر تجسده وآلامه ».

فكما رأينا هي الافخارستيا التي ترافق الكنيسة في طريق صعودها نحو الله. فهي الغذاء الذي يعطيها الحياة ويكملها والخبز اليومي « الذي ترد منه كل كل يوم موارد كأس الحياة والخلاص ؛ والزاد الذي تتناوله اذا ما جاعت في سفرها الطويل ». وهكذا يتمكن كل شخص ان يساهم في عمل خلاصه وخلاص البشرية. ويظل القربان غذاء يغذي كل مسيحي والكنيسة جمعاء الى ان يبلغ المسيح كماله في البشرية « لأجل بنيان جسد المسيح الى ان ننتهي جميعنا الى وحدة الايمان ومعرفة ابن الله الى انسان كامل الى مقدار قامة ملء المسيح »[2].

نعم ان للعوامل الانسانية دورها في تاريخ الكنيسة وفي بنيان جسد المسيح ولكن الذي يعمل خاصة في قيام البنيان وديمومة الكنيسة وبقائها هو عامل فائق

١) كذا في *Eucharistia* ص ١٩٥ .
٢) افس ٤ /١٢-١٣ .

الطبيعة . عامل يخرج عن نطاق المقدرات الانسانية ألا وهو بقاء المسيح مع كنيسته : « أنا معكم الى منتهى الدهر ... وابواب الجحيم لن تقوى عليها » . نعم . المسيح هو مع كنيسته وهو معها خاصة بواسطة سر القربان . ولذا نتساءل اذا بطّل القربان في العالم هل تدوم الكنيسة في الوجود؟ وهو معها بواسطة روحه القدوس « لأن الذي نزل هو الذي صعد ايضاً فوق السماوات ليملأ كل شيء »[1] . ولقد صعد لأن انطلاقه خيراً لنا لأنه لو لم ينطلق لم يأتنا المعزي »[2] . وفي نهاية مطاف التاريخ يتسلم المسيح الخطية التي جلبها بمراهب روحه القدوس . « والتي اشتراها بدمه الكريم »[3] جميلة لا عيب فيها . ثمرة حبه الذبيح .

المصادر

١١ العربية

منارة الأقداس ماراسطفان الدويهي ١٨٩٦

١٢ الفرنسية

J. Baudot, *Le Bréviaire*, Paris, 1929.

L. Duchesne, *Les origines du Culte Chrétien*, Paris, 1920, c. XVI.

H. de Lubac, *Méditations sur l'Eglise*, ch. IV, pp. 97-123, 1953.

K. Adam, *Le vrai visage du catholicisme*, pp. 263-267.

H. de Lubac, *Catholicisme*, pp. 57-83, 1952.

P. Battifol, *Etudes d'histoire : l'Eucharistie*, Paris, 1920.

Eucharistia, Encyclopédie populaire sur l'Eucharistie.

Saint Ephrem, *Hymnes et Sermons*, Collection Lamy.

Ernest Mura, *Le Corps Mystique du Christ*, t. II, 1937.

André de Bovis, *L'Eglise et son mystère*, 1961.

Marie Joseph Nicolas, *L'Eucharistie*, Collect. Je sais. Je crois, 1959,

١) افسس ٤ /١٠ .

٢) يو ١٦ /٧ .

٣) ليل الأحد القومة الرابعة النشيد .